

قراءة سوسيولوجية للقيم الاجتماعية
في مضامين الحكايات الشعبية
Lecture sociologique des valeurs sociales
Dans le contenu des contes populaire

د. وشنان حكيمة
أستاذة محاضرة أ
جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة
البريد الإلكتروني: ouchenane21@outlook.fr

ملخص:

الملخص: يقدم هذا المقال الحديث عن الحكاية الشعبية، من خلال توصيفها كحكايات تروىها غالبا الجدات للأحفاد بغرض التسلية في الظاهر، وغرس قيم محددة في الباطن. فالحكاية، صورة للمجتمع والحياة. وبغض النظر عن قصرها أو طولها تبقى مميزة بعجائبية الموضوع وطريقة سردها وأحداثها وحتى وقت روايتها، ما يدفع الأفراد لحفظها والمحافظة عليها للذكرى وللتاريخ، فتفرض حتمية قراءتها كل من زاوية تخصصه.

الكلمات المفتاحية: التراث الشعبي، الحكاية الشعبية، القيم الاجتماعية.

Résumé:

Cet article propose une discussion sur le conte populaire, en le décrivant comme des histoires souvent racontées par des grands-mères aux petits-enfants dans le but de divertir en face, et en inculquant des valeurs spécifiques dans le sous-continent. L'histoire est une image de la société et de la vie. Et quelle que soit sa brièveté ou sa longueur, elle se distingue par les merveilles du sujet, la manière dont elle est racontée, ses événements et même le temps de son roman, qui conduit les individus à les conserver et à les conserver pour la mémoire et l'histoire.

Mots clés : Patrimoine populaire, conte populaire, valeurs sociales.

ISSN 2661-7331

مجلة دراسات في علوم الانسان والمجتمع – جامعة جيجل

رقم العدد التسلسلي 02

مجلد: 02 عدد: 01 السنة 2019

مقدمة:

ترتبط الحكاية الشعبية ارتباطاً عضوياً ووظيفياً بالتراث الشعبي، فهي جزء منه، تنشأ وتحكي لغاية معينة، تقتضيها المواقف والمقامات، لتحقيق غايات مختلفة، قد تكون تربوية، نفسية، اجتماعية، دينية، منفردة في ذلك بأدائها بسمات تميزها عن باقي الألوان الأدبية والفكرية والفلسفية عامة، لأنها تريد أن تفي وفاء كبيراً بحاجة الإنسان إلى التعبير عن نفسه بحكاية تجربته ومنحها شكلاً فنياً ذا استقلال يعادل التجربة ويوازنها ويحمل إمكانات إقناع الآخرين والتأثير فيهم.

وتتنوع القيم الاجتماعية في الحكايات الشعبية، بتنوع جوانب الحياة البشرية نفسها، فمنها ما هو أخلاقي واجتماعي ونفسي وخيالي ووطني، لتبقى قناة هامة تفيد في نقل هذه القيم من جيل لآخر، فيستمر وجود المجتمع بعاداته وتقاليده وقيمه إن لم يتعرض للتحريف، تغييراً أو تزويراً أو تعديلاً. أولاً. الحكاية الشعبية جزء من التراث الشعبي: الحكاية الشعبية هي أحداثاً يسردها راوي أو راوية في جماعة من المتلقين، يحفظها مشافهة عن راوي آخر، ولكنه يؤديها بلغته غير متقيد بالفاظ الحكاية، وإن كان يتقيد بشخصياتها وحوادثها ومجمل بنائها العام. (محبك أحمد زباد، 2005: 19)، تلقى مشافهة لأغراض عديدة، تعبر عن أحزان الشعوب وأفراحها وخوارقها وأمنياتها، وتاريخها. والتراث الشعبي هو الصورة الحقيقية للشعب وهو بالنسبة إلى الشعب العربي خاصة، تراث شعبي واحد مشترك، يؤكد وحدة الشعب العربي ويدعمها.

إن التاريخ الحقيقي للشعب، في همومه وعذابه وآلامه وشقائه، وفي أفراحه وطموحاته وآماله وكفاحه، وفي تفكيره وانفعاله، وفي فعله وتعبيره، لا يمكن أن يتحقق إلا بالبحث في نتاج يقدمه الشعب نفسه. والنتاج الذي يقدمه الشعب نفسه، هو النتاج الذي كان، إلى عهد قريب، منبوذاً من أكثر دارسى الأدب، والباحثين في التاريخ، بل كان مزدرياً وممقوتاً، إنه النتاج الذي يوصف عادة بأنه نتاج غير راق ولا متطور ولا رفيع، وأنه نتاج "العامة" والذي لا يحظى بشيء من الرعاية والاهتمام، بل لا يلقى الاعتراف، وإن كان في حقيقته ليس كذلك، بل إنه في أهميته وقيمته، على

النقيض من ذلك كله. ولا بد من أن يلاحظ أن موقف الازدراء من نتاج الشعب ليس موقفا أصيلا ولا قديما في المجتمع العربي، وإنما هو إلا موقف طارئ.

إذن فالنتاج الذي يمكن من خلاله معرفة الشعب معرفة صحيحة، ويمكن به كتابة تاريخه الحقيقي، هو نتاج الشعب نفسه ويتمثل في كل ما يقوله الناس ويفعلونه، في حياتهم اليومية اتجاه موقف ما، استجابة منهم لذلك الموقف، استجابة عفوية، تامة وتعبيرا عن موقف منه أيضا. ويمكن أن يلاحظ في النتاج الشعبي نوعان، النوع الأول قولي، والنوع الثاني فعلي. فمن النوع الأول القولي، الحكم والأمثال والأغنيات والحكايات والنكات والألغاز والدعوات ونداء الباعة وأسماء المحلات، وما يكتب من كلمات أو جمل أو تعليقات أو أبيات على المناديل والثياب وجدران البيوت من الداخل وعلى الأبواب وشاهدات القبور، وعلى وسائل النقل، وغير ذلك. ومن النوع الثاني الفعلي، الاحتفالات في الأعياد والمناسبات والطوائر من زواج ووفاة وولادة، والرقص وألعاب الأطفال، وعادات الزيارة والولائم، وأزياء الملابس، وأثاث البيت وزينته وغير ذلك.

والنوعان في النتاج الشعبي، من قولي وفعلي، متكاملان، بل متداخلان، إذ كثيرا ما يصحب أحدهما الآخر ويشاركه. وأبرز ما يتسم به النتاج الشعبي هو عفويته وشموله، فهو موقف عفوي، يصدر فورا من غير تخطيط ولا دراسة، ولكنه موقف أصيل، يحمل الفكر والانفعال، معا، ويمثل شعورا جماعيا، وهذا ما يضمن له سرعة الانتشار والقبول من الجميع، فيحقق بذلك الشمول، فإذا هو كلي، عام، مشترك.

والنتاج الشعبي في حقيقته إبداع جماعي، قد يكون مبدعه الأول فردا، وقد يكون نتيجة حادثة وقعت فعلا، ولكنه لا يظل كذلك، إذ ما يلبث أن يصبح ملكا للجميع، يتناقلونه ويضيفون إليه، بل يبدعونه ثانية، حتى يبدو في أصله غير حقيقي، فيتخذ عند إذ طابعه الشعبي، وينسى مبدعه الأول، كما تنسى حادثته الحقيقية الأولى، وإن ذكرت، فكأنها خرافة لا حقيقة.

ولأن النتاج الشعبي تعبير عفوي، فهو مؤقت، ومتغير وليس ذا شكل أو قالب ثابت، وهو متجدد دائما، تموت فيه أشكال وتولد أشكال. ولكن لا يمكن له أن يموت، فهو مستمر دائما، ولكن في أشكال جديدة مختلفة وكفي للمرء أن يذكر النكتة التي هي حية دائما والتي هي دائما دليل حياة.

وتبرز حيوية النتاج الشعبي واستمراره، خطأ المصطلح الشائع في الدراسات العربية، وهو التراث الشعبي، إذ يدل هذا المصطلح على القديم من النتاج الشعبي فحسب، وكأنه نتاج قد انقطع، أو كأن القديم منه وحده الجدير بالدراسة، على حين أن النتاج الشعبي نتاج حي متواصل، ولا يمكن أن تقتصر قيمته على القديم منه.

وكلمة فولكلور الانجليزية التي استعملها أول مرة وليام طومس سنة 1647 لا تعني ما يعنيه مصطلح التراث الشعبي. وإنما تعني في اللغة حكمة الشعب أو المعرفة الشعبية، وهي تعني في الاصطلاح النتاج الشعبي كله. وقد اقترحت في اللغة العربية بعض المصطلحات البديلة من مصطلح التراث الشعبي مثل المأثورات الشعبية والمرددات الشعبية والفنون الشعبية والشعبيات، ولكن لم تحظ هذه المصطلحات من القبول والانتشار مثلما حظي به مصطلح التراث الشعبي. ولعدم انتشار مصطلح التراث الشعبي وتأكيد وحدته في الأقطار العربية، يبدو أنه لا بد من القبول به، ولكن لا بد أيضا من التأكيد أن معناه يجب ألا يقتصر على القديم من النتاج الشعبي، وإنما يجب أن يشمل كله، قديمه وحديثه.

إن التراث الشعبي لا يقل في أهميته التاريخية والعلمية عن أهمية الحفريات والآثار، والوثائق والمحفوظات، بل لا يقل في أهميته التاريخية والعلمية عن أهمية الحفريات والآثار، والوثائق والمحفوظات، بل لا يقل في أهميته عن التقارير الحية والإحصاءات، فهو يقدم مادة أولية، عفوية وصادقة، تساعد في معرفة الشعب، معرفة لا تغيب عنها أدق التفاصيل، في عمق ووضوح، وفي نبض ودفع حي.

ثانيا. عناصر ومميزات الحكاية الشعبية: تقوم الحكاية الشعبية على مجموعة من العناصر، هي:

- 1- الفعل المستمر.
- 2- الفعل الناجم عن تسلسل الأحداث.
- 3- الفاعل والفعل الرئيسي.
- 4- وصف لفعل مستمر له نهاية أو غاية.

هذه العناصر يمكن اختصارها في ثلاثة عناصر أساسية: الفعل، الفاعل، الحركة. (المرزوقي وشاكر، د.س: 23)

كما تتميز الحكايات الشعبية بعدة سمات متعددة ومختلفة، تستمد منها من طبيعتها وعناصرها، وأهدافها. والتي نقدمها فيما يلي: (محبك أحمد زياد، 2005: 19-25)

1- غالباً ما تروى العجائز لأحفادهن: في ليالي الشتاء الطويلة، قبل الذهاب للنوم، وقد يروىها غير العجائز، في مواقف تقتضيها، للعضة والاعتبار وضرب المثل، ولكن الحكاية لا تسرد على الأغلب إلا ليلاً، في جو يتم التهيؤ له، فالجدة تقعد على حشية، ويقعد الأولاد أمامها، في استعداد للتلقي.

2- للحكاية الشعبية لغتها الخاصة التي تلقى بها: وهي لغة متميزة، ليست لغة الحديث العادي، مما يمنحها قدرة على الإيحاء والتأثير، وغالباً ما يكون الإلقاء مصحوباً بتلوين صوتي، يناسب المواقف والشخصيات وبإشارات من اليدين والعينين والرأس، فيها قدر من التمثيل والتقليد. ويتم التلقي بإصغاء حاد، قد يتخلله الضحك، أو الفزع، كما يقتضي الموقف، ولكن في تقدير واحترام وتصديق واندھاش، ومن غير مقاطعة.

3- لكل حكاية اسم، هو عنوانها: يستمد من عنصر بارز فيها، من الشخصيات أو الحوادث، وهو اسم ثابت قليلاً ما يتغير وبعض العناوين تطلق على عدة حكايات، مثل حكاية الذئب والقنفذ.

4- للحكاية بداية ونهاية ثابتتين محفوفتين: مثل: كان ياما كان، في قديم الزمان. وكثيراً ما يتم في الحكاية القطع، بالوقوف في موضوع من الحكاية، والعودة إلى الوراء، لسرد الحديث عن شخصية، أو حادثة، يدعي الراوي أنه نسي سردها بقوله: فاتني أن أحكي لكم...، وإن كان يعتمد على مثل ذلك على الأغلب، لأن الحكاية مبنية على القطع الذي يمكن أن يصطلح عليه في الحكاية الشعبية بالفوات. وقد يخلط الراوي بحكاية بحكاية، فيضع نهاية حكاية ما موضع حكايته التي يروىها، أو قد تقترب الحكاية من نهايتها، فيشعر بحاجة المتلقين إلى سماع المزيد، فيصل حكاية بحكاية، وغالباً ما يتنبه المستمعون إلى ذلك، فيقال عن الراوي عندئذ بأنه قد وصل الحبل بالحبل. وأحياناً يبتسر الراوي الحكاية، فيقفز سريعاً إلى نهايتها، لأنه يجد لدى المتلقين ما يحمله على مثل ذلك الابتسار، من ملل أو نعاس. وأحياناً أخرى يشرك الراوي المتلقين في حوادث الحكاية، وشخصياتها، فيخرج

عن السرد ويفاجئ المتلقين، فيشبه أحدهم بإحدى الشخصيات، أو يدخله في الحكاية، ويعطيه دور فيها، على سبيل المزاح. وتختتم الحكاية بخاتمة محفوظة ثابتة، مثل قول الراوي: انتهت الحكاية، هل أعجبتكم.

5- الحكاية تقدم قصة ذات بداية ونهاية، متكاملة: تمتاز بالتماسك، وقوة الحبك والبناء وهي تعتمد على حوادث كبيرة فاصلة وغالبا ما تكون غريبة ونادرة، وهي حوادث كثيرة وكبيرة، وليس فيها شيء من الوقوف على الحوادث الصغيرة والتفصيلات أو شيء من الاهتمام بالمواقف النفسية والانفعالات.

6- تمتد الحكاية طويلا في الزمان: وتشغل حيزا كبيرا في المكان، فتتغير فيها المواضع، وتبديل العهود، ولا تنتهي الحوادث حتى يستقر كل شيء، وتحقق الاحتمالات والتوقعات كافة، وينال كل ذي حق حقه، بما يرضي الجميع ولذلك غالبا ما تكون النهاية هي الموت، بعد السعادة والاستقرار، أو فوز أحد شخصياتها وانتصار الحق على الظلم وهكذا. وعلى الأغلب لا يحدد الزمان ولا المكان، فالزمان هو قديم الزمان، وسالف العصر والأوان والمكان هو بلد من بلاد الله الواسعة، وقد يحدد تحديدا عاما كبغداد مثلا، على سبيل التقريب والتوضيح أو ضرب المثل والشخصيات في الحكاية، واضحة محددة، وهي على الأغلب، شخصيات نمطية، تتحدد بموقعها في الأسرة، أو بمكانها في المجتمع، كالأب والأم والابن، أو كالمملك والوزير والتاجر والفقير، ولا توصف الشخصيات ولا تحدد ملامحها الجسمانية أو النفسية إلا إذا كان فيها عيب، مثل: أعرج، قصر، بخل، جبن. وغالبا ما يكتفى بصفة واحدة تتحدد بها الشخصية، وعادة ما توجد شخصية محورية أو شخصيتان، وتوجد من حولها، شخصيات ثانوية، كثيرة وإذا كانت الشخصيات الثانوية، ثابتة ومسطحة، فإن أغلب الشخصيات المحورية نامية ومتطورة.

7- تقدم الحكايات أنواعا كثيرة من الشخصيات: في غنا وتنوع كبيرين، فهي تقدم الأب المغرور والأم العطوف وزوجة الأب الظالمة والابنة الوفية والأخت المشفقة، والأخ الغادر، والصديق الوفي وغيرها. وتقدم تلك الشخصيات وغيرها، في توازن وانسجام غريبيين، هو توازن الحياة وانسجامها، على الرغم مما يبدو فيها في الظاهر من تعدد وتناقض واختلاف.

كما تقدم الحكايات الشعبية شخصيات بشرية مسخت بفعل السحر وحولت إلى حيوان أو نبات أو جماد، ولا تنتهي الحكاية حتى يعود المسخ إلى ما كان عليه في وضع أكرم من قبل، وأفضل ولكن بعد معاناة، كما تقدم الحكايات الشعبية شخصيات أخرى غريبة كالغول والعفريت والمارد والجني، منها ما يخدم الإنسان ويساعده ومنها ما يتسبب في إلحاق الضرر به. وتعتمد الحكايات الشعبية على كثير من الأدوات والوسائل، التي تحدث في الحكاية تغيراً تقوم عليه نهايتها. من ذلك الغربال الذي يتدحرج فيدل من يتبعه على موضع يطلبه، وتظهر في الحكايات جمل جاهزة محفوظة، هي كالمترکزات يستعين بها الراوي في السرد، وأغلبها جمل وصفية تصلح في مواضع مختلفة منها وصف الأرض.

8- للحكايات الشعبية أنواع كثيرة: بحسب موضوعها أو طولها أو بنائها، أو غايتها، كالحكايات الدينية وحكايات الجن والعفاريت، وحكايات السحر والخوارق وحكايات الحيوان، وحكايات العضة والاعتبار، وحكاية الفكاهة والتندر، وحكايات الانتقاد الاجتماعي، وحكايات الحيوان، وحكايات العضة والاعتبار، وهي أنواع كثيرة، بعضها يتداخل في بعض، وكثير من الحكايات يمكن تصنيفها في أكثر من نوع، ولذلك يبدو التصنيف أمراً لا يخلو من تعسف. والحكايات عامة شيقة، ليس للأطفال فحسب بل للكبار أيضاً، وحكايات الصغار نفسها تعبر عن الكبار، وتتضمن تجاربهم وتحمل خلاصة خبرتهم. "لأنها تعبر عن رموز ذات جذور اجتماعية تعبر عن تفكير أفراد المجتمع ورغباتهم وخبراتهم." (عمر خليل معن، 1991: 175)

ومن الحكايات الخاصة بالأطفال، والتي تعبر عن أحاسيس الكبار وانفعالاتهم. وكثير من الحكايات تعبر عن قضايا في الواقع يعاني منها الفقراء والمحرومون، وتحمل توقعهم إلى العدل والحرية والرخاء، ولكن لا يتحقق لهم ذلك في الحكاية إلا بالمعجزات والخوارق، مما يدل على إحساسهم باستحالة الوصول إلى العدل والحرية والرخاء في الواقع، وهو ما يجعل للحكاية دوراً في خلاصهم مما هم فيه من ضيق ومعاناة، فكأن الحكاية حلم يتحقق فيه ما لا يمكن أن يتحقق في الواقع، والحكاية بذلك تخفف من الإحساس بالظلم والقهر، ولا تنعي شيئاً من ذلك الإحساس ولا تشير إلى شيء من محاولة الرفض والتغيير، وأكثر الحكايات تقوم على موقف سلبي، عماده الصبر والانتظار والتعلق

بالآمال والأحلام، والتي تتحقق أخيرا من غير كدح ولا عناء، ولا سعي إلى التغيير وإنما بالمصادفة، والمعجزات.

9- تعبر الحكاية عامة عن فلسفة بسيطة: لا تعقيد فيها ولا عمق، هي فهم الإنسان للحياة فهما أوليا، في أثناء بحثه عن التلاؤم مع الواقع، ورغبته في تحقيق الراحة والاستقرار، وهي فلسفة توسعية، عمادها اعتبار الفضيلة وسطا بين رذيلتين، مع ميل إلى القبول والرضا والمصالحة والاقتناع بالبساطة والكفاف، وهي فلسفة لا تخلو من ذكاء وتآلق وتمتاز بالبساطة والقدرة على التأثير.

10- لا يعرف واضع الحكاية الأول: مثلما لا يعرف راويها الأول، إذ أنها لا تلق شيئا من التوثيق في الرواة، وإذا ما ذكر أحد منهم فغالبا ما يذكر الراوي الأخير الذي هو أحد أفراد الأسرة ولاسيما الجدة.

11- تحمل بعض الحكايات طابع بيئتها وملامحها: فمن الممكن أن يلاحظ في بعض الحكايات مثلا البحر والبحارة والسفن وفي حكايات أخرى الأسواق والتجار والبضائع، مما يوحي بإمكان نسبة حكاية ما إلى بيئة ما ولكن لا يمكن في الواقع الجزم بتلك النسبة، كما لا يمكن تخصيص نوع من الحكايات ببيئة ما، فالحكايات سريعة الانتشار، سهلة التناقل وكثيرا ما تروى حكاية في بلد ما وتشبهها شها كبيرا حكاية أخرى تروى في بلد آخر وبين البلدين بعد كبير، واختلاف في اللغة والثقافة وقد يفسر ذلك التشابه بوحدة التجربة الإنسانية.

12- تسعى الحكاية الشعبية دائما إلى تحقيق الشمول الكلي: بالتعبير عن جوهر التجربة الإنسانية، منطلقة من الخاص إلى العام، غير متخلية عن تفرد التجربة، مستعينة إلى ذلك بالحدث الكبير الفاصل، وبالشخصية النمطية المحددة، وبالفكرة الواضحة والتعبير العفوي البسيط، مما يتيح لها سهولة السيرورة والانتقال، فإذا هي تعبير عن تجربة عامة شائعة شاملة، تحمل وجدان الجماعة وتمثل روحها وأحاسيسها وانفعالاتها وإذا كل رواية لها هي تعبير فردي جديد، يكسب الحكاية وهج الانفعال وحدة الشعور وقوة التعبير. إن الحكاية الشعبية تفي وفاء

كبيرا بحاجة الإنسان إلى التعبير عن نفسه بحكاية تجربته ومنحها شكلا فنيا ذا استقلال يعادل التجربة ويوازنها ويحمل إمكانات إقناع الآخرين والتأثير فيهم.

13- الحكاية الشعبية مرتبطة بأشكال التعبير الشفوي في المجتمع: وقد أخذت مثل تلك الأشكال تفقد مكانتها في العصر الحديث، بسبب انتشار أشكال تعبير جديدة تعتمد الكلمة المكتوبة والصورة المتحركة وتمثلها الصحف ووسائل الإعلام، التي أخذت تحل محل أشكال التعبير الشفوي. على الرغم من ذلك كله تظل الحكاية الشعبية محتفظة بإمكانات كبيرة، تساعد على التعبير عن الوجدان الجماعي، تحمل هموم الناس وتزودهم بخبرات وتجارب وثقافات، تمس وجدان الفرد وتنتهي إلى ذاته وترتبط بها لتمنحه الإحساس بالانتماء إلى الجماعة والانسجام معها وهو غاية ما تسعى إليه فنون القول. ولقد غدت الحكايات الشعبية مادة أولية تستثمرها كثير من الأشكال والأنواع الأدبية والفنية تستلهمها وتبنى عليها، أغنيات ومسرحيات، وروايات وتمثيلات وبرامج شتى. والحكايات الشعبية غنية بعد ذلك بما يخدم الباحثين في المجالات الإنسانية والتراثية والأدبية والفنية.

ثالثا. فنطازيا السحر والخيال والعجائبية في الحكاية الشعبية: لعل أجمل أنماط الحكاية الشعبية النمط المغرق في عالم من السحر والخيال، فهو يتضمن عجائب في الإنس والجن والحيوان والطير وعجائب أخرى في الزمان والمكان تدل كلها على قوة التخيل وعلى حاجة الإنسان العفوية إلى مثل هذا النوع من الخيال الجامح، فإذا كان الإنسان في عصور سابقة قد تخيل بساط الريح وطاقية الإخفاء والعصا السحرية، فقد حققت له الاختراعات العلمية بعض هذا الخيال مما يدل على أن الخيال قوة متجددة مثلما هو حاجة متجددة أيضا.

أما بالنسبة للعجائبية، فهي نزعة إنسانية قوامها ابتكار ما هو عجيب والعجيب هو ما يكسر المألوف ويتجاوز الممكن ليخترق المستحيل ويحقق ما لا يمكن تحقيقه، محدثا بذلك حالة من الدهشة، معتمدا على الابتكار الذي يقيم علاقات غير متوقعة وغير ممكنة بين الأشياء، والعجيب هو من نتاج خيال عفوي بسيط أقرب إلى السذاجة وهو خيال مصدق كأنه حقيقة واقعة ومصدره روح شعبية، وغالبا ما يأتي لتحقيق الخلاص عندما تنعدم كل الحيل وتنقطع كل السبل،

وهو تعبير عن قهر داخلي أو حرمان وقمع، أو محض انطلاق خيالي لتحقيق المتعة الفنية وكلما كان موغلا في اختراق المستحيل كان أكثر تأثيرا، ولعل مرجع العجائبية هو رغبات أولية غير مشبعة لذا الإنسان، فهو من خلال العجائبية يحقق كثيرا من الرغبات المستحيلة، و العجائبية تظهر في أشكال كثيرة من الإبداع منها الحكايات الشعبية. (محبك أحمد زياد، 2005: 86)

- العجيب المبني على الإرادة الإلهية وفق التصور الشعبي: وهو أنواع، منها العجيب أشبه بمعجزة نبي أو كرامة ولي والحكاية تلمح إلى ذلك ولا تصرح.

- عجيب المسخ من إنسان إلى كائن آخر: يعتمد على مسخ الإنسان في هيئة غير إنسانية من طير أو حيوان أو نحوه كي يمر هذا الإنسان بمشاق وصعوبات إلى أن يحين موعد عودته إلى ما كان عليه وزوال المسخ عنه، وغالبا ما يكون الخلاص بواسطة الحب، وليس ثمة قوة محددة أو معروفة تقف وراء ذلك المسخ، وعلى كل حال هو مسخ مؤقت، يزول بزوال السحر أو الفعل الخطأ المرتكب.

- عجيب المارد: الذي يقدم خدماته للإنسان، مثل قصة علاء الدين والمصباح السحري في روايتنا العربية، حيث يعثر علاء الدين على المصباح وعند مسحه يخرج منه المارد الذي يصير خادمه المطيع فيخبره بأن باستطاعته أن ينفذ له كل طلباته، مثل بناء القصر، وحمله من مدينة إلى مدينة في وقت قصير جدا وغيرها من الخدمات التي تبدو صعبة لكنها تهون بيد المارد.

- عجيب السحر والكنز المفقود.

رابعا. وظائف الحكايات الشعبية: إن وجود الحكاية وروايتها مرتبط بما تؤديه من وظائف في البناء الاجتماعي، فهي جزء من البناء الثقافي تعكس الوجود الاجتماعي الذي يتضمن صورة من الواقع وعلاقاته الاجتماعية التي تعبر عن مدى التكافؤ أو عدمه بين أفراد المجتمع كما تعبر أيضا عن القيم المعنوية والطبقة السائدة فيه ورغبة الإنسان في تغيير الأوضاع لذا فالحكاية الشعبية هي نوع من التعبير عن رأي فئة من فئات المجتمع تحمل معاني كالحب والإيمان والخير، إذا فهي تعبيرية تعليمية انتقالية (أي نقل الخبرات).

على هذا الأساس العام للحكاية الشعبية وظائف تؤديها هي:

-وظائفها داخل الأسرة: تكون الحكايات داخل الأسرة في غالبيتها موجّهة للأطفال ما يجعل من وظيفتها وظيفة تربوية تنمي الخيال والقدرات الذهنية وتقدم النماذج الأمثل للسلوك الحسن.

-وظائفها بحسب قيمها التفسيرية: تعد بعض الحكايات أداة للمعرفة في تصور الكون والمحيط الاجتماعي وقد لا يقتصر الهدف من هذه القيمة على الصغار فحسب بل حتى الكبار، فهم في حاجة للأخلاق والوعظ وتربية الوجدان الجمعي وغرس القيم الاجتماعية المثالية.

-وظائفها النفسية والبيولوجية: حيث تمثل الحكاية مبرراً للتنفيس عن المكبوتات الجنسية للإنسان التي لا يستطيع ممارستها في الواقع، أما الجانب البيولوجي والأخلاقي في الحكاية فهو محقق للخير وخلق العالم المثالي الذي تزول منه كل العوائق التي تحد من تحقيق غايات ورغبات الفرد.

-وظائف ترفيهية: من خلال الحكاية يتحقق الاتصال بالآخرين ومشاركتهم للأحاسيس وأساليب التعبير، فالفرد وهو يشارك في الحكاية يجد متعة وراحة نفسية يلجأ إليها أثناء الملل ووقت الفراغ، حتى في السجن التزلاء يقضون على الملل عن طريق الحكايات.

رابعا. القيم الاجتماعية في مضامين الحكايات الشعبية: القيمة كلمة ذات معنى غامض يصعب تعريفها، وينشأ غموض معناها من لا ماديتها، مع ذلك اجتهد علماء الاجتماع في شرحها، "فبوبر" يعرفها بأنها: أي شيء خيرا كان أم شرا. فالنزعة العلمية ترى كل قيمة في العلم والمادية تراها في الإنتاج والاقتصاد والعقلانية في العقل، والصوفية في الدين وهكذا.

وتستمد القيم معانيها ومشروعيتها ومصداقيتها من الوجود الاجتماعي التاريخي، الحامل لذات الهوية، وهي قابلة للتغير، وتؤدي وظائف للفرد والمجتمع، حيث تعمل على تحقيق التوازن النفسي للفرد والانضباط والتماسك الاجتماعي، حتى تؤدي دورها في وقاية الفرد والمجتمع معا من الكثير من المظاهر المرضية التي قد تزعزعه وتحدث الخلل فيه.

وللقيم أصناف، تنعكس في عدة مجالات من الحياة الاجتماعية، نمثلها في: (عراي ودكاك، 2006-2005: 92-93)

- القيم الحسية: تشمل القيم التي تؤدي إلى الشعور باللذة عن طريق الحواس، كالألحان الموسيقية الشجية والمناظر الجميلة والروائح الطيبة والطعام الشهي والملمس الناعم.

- القيم البيولوجية: تشمل قيم الأفعال والموضوعات التي تؤدي إلى المحافظة على الذات واستمرار النوع وتجنب الآلام وتهديدات الحياة، كالمحافظة على الصحة والحيوية وإرضاء الدوافع الجنسية ودوافع الأمومة والأفعال المماثلة.
 - القيم السيكلوجية: تشتمل على قيم الأفعال التي تؤدي إلى الترويح عن النفس وإرضاء الميول الطبيعية والمكتسبة كاللهو واللعب والرياضة والترحال والاستكشاف والمشاركة في المناسبات الاجتماعية والصدقة والحياة الأسرية وممارسة ألوان الفنون والمساهمة في الأنشطة الاجتماعية الترويحية المختلفة.
 - القيم الأخلاقية والاجتماعية: تشمل الأفعال التي تؤدي إلى تحقيق الانتماء الاجتماعي والالتزام بالأخلاق في السلوكيات.
 - القيم العقلية: تشتمل جميع الأفعال التي تؤدي إلى عقل إنساني حقيقي، أي عقل قادر على الربط بين الأفكار والوقائع واستخلاص النتائج بطريقة سليمة، كالحوار البناء والابتعاد عن التعصب وتحصيل المعرفة وتحمي النزاهة والموضوعية.
- وتتضمن الحكايات الشعبية هذه الأصناف من القيم، حين نتحدث: عن مواضيع مختلفة مثل: العلاقة بين الآباء والأبناء لتبرز قيمتي: البر والعقوق، والوطن، لتبرز قيم عدة مثل: الجهاد والتضحية، والأسرة لتحدد قيم عدة منها: الحب وأهمية العلاقات في حياة الأفراد لأنها توفر المساندة وتشعر بالانتماء والقبول الاجتماعي ما يحقق بدوره الرضا عن الذات، والذكاء لتتضمن قيم: الخيال والفتنة والحيل. والصدقة لتعلم قيم مثل: الاختيار والزيف والحقيقة والانتهازية. وغيرها من المواضيع التي تحمل مختلف القيم التي يؤمن بها الفرد والمجتمع.
- وفيما يلي بعض الحكايات نقدمها كنماذج تحمل قيما معينة، اخترناها عشوائيا بغرض الاستدلال العلمي على الموضوع المعالج:

1- حكاية عن أحد أوجه العلاقة بين الآباء والأبناء: الأبناء هم أغلى ما يملك الإنسان، وأحب إلى النفس من النفس فيهم يرى المرء ذاته وسعاداته الكبرى، ويتمثل نجاحه في نجاحهم، لأنهم امتداد لذاته. وتتعدد حكايات الأبناء والآباء في الحكايات الشعبية، لتتناول مواضيع مختلفة مثل: المواقف

التي يقدمها الآباء للأبناء نقل التجارب، الذكاء، التربية، عقوق الأبناء. ومن أبرز هذه الحكايات، حكاية أم ربت ابنها الوحيد، حتى كبر وشب، فزوجته، وجاءت زوجته لتكيد لها، حتى وصل بها الأمر للتظاهر بالمرض، والادعاء أن شفاءها في قلب إنسان تأكله، وأشارت على الولد بأمه، فأخذ أمه إلى بستان وهناك انتظر حتى أخذتها سنة النوم، وشق صدرها واستخرج قلبها، وأخذ يركض مسرعا به إلى زوجته، لكن وبينما هو كذلك تعثر في الطريق ووقع على الأرض، فصاح القلب مشفقا على الولد، فتنبه هذا الأخير وندم على فعلته، وما كان منه إلا أن رجع إلى أمه وطعن نفسه بالسكين ليموت إلى جانبها. وهناك من نظم هذه الحكاية شعرا، وهو الشاعر اللبناني إبراهيم المنذر، وفيها يقول: (محبك أحمد زياد، 2005: 64-65) وفي هذه الحكاية، يتجسد الحب الحقيقي كقيمة في حب الأم لأبنائها، الذي لا تبنيه المصالح والحاجات وإنما الفطرة وغيرة الأمومة، سواء بحياة أو ممات.

أغرى امرؤ يوما غلاما جاهلا	بنقوده كيما ينال به الوطر
قال انتني بفؤاد أملك يا فتى	ولك الجواهر والدراهم والدّر
فمضى وأغمد خنجرا في صدرها	والقلب أخرجه وعاد على الأثر
لكنه من فرط سرعته هوى	فتدحرج القلب المضرج إذ عثر
ناداه قلب الأم وهو معفر	ولدي حبيبي هل أصابك من ضرر
فكأن هذا الصوت رغم حنوه	غضب السماء على الغلام قد اهتمر
فارتد نحو القلب يغسله مما	لم يأت أحد سواه من البشر
واستل خنجره ليطعن نفسه	طعنا فيبقى عبرة لمن اعتبر
ويقول يا قلب انتقم مني ولا	تغفر فإن جريمتي لا تغفر
ناداه قلب الأم كف يدا ولا	تذبح فؤادي مرتين على الأثر

2- حكاية عن الذكاء والغباء: تجسدها بصفة عامة حكايات الذئب والقنفذ في التراث الشعبي الجزائري، وكلنا يحفظها عن ظهر قلب، فلربما أكثر مما يحفظ واجباته. حيث يصور دائما الذئب بصورة الغبي بعكس ما يشاع عنه في الواقع بأنه رمز للذكاء والخبث، ويصور القنفذ في صورة

الذكي الذي لا يعدم حيلة للتفوق على الذئب أو الانتقام منه. من بين هذه الحكايات بخصوص هذا الشأن حكاية الاختيارات الخاطئة التي يقع دائما فيها الذئب، كاختياره لما فوق الأرض حين زرع والقنفذ الجزر فاختار هو الجزء العلوي أي الأوراق الخضراء التي لا نفع منها بدلا من الجزء السفلي وهو الجزر. وحين اختار الجزء السفلي أي الجذور حين زرع القمح. وهنا يتجسد الذكاء كقيمة إيجابية مقابل الغباء كقيمة سلبية الغرض منها التسلية وتعليم الأبناء أو الفرد عامة الحيلة والذكاء حتى يستطيع التغلب على صعوبات الحياة.

3- حكايات عن الأنبياء والأولياء الصالحين: تمثلها رأسا حكايات الرسل والأنبياء، كقصة يوسف النبي وإخوته وإبراهيم وعيسى وموسى والنبي محمد عليه الصلاة والسلام وحتى الصحابة كعمر بن الخطاب وأبو بكر. يكون الغرض منها دائما غرس القيم الدينية في نفوس الأطفال وحتى الكبار عامة، وأخذ العبرة من سير الأنبياء وحفظ قصصهم وتعلم الخير والخشية من الله.

خاتمة:

تضمن هذا المقال موضوع الحكاية الشعبية، قاصدا الحديث عنها للإلمام بالجوانب الموضحة لها، بدء بالتعريف لتبين من خلاله أنها جزء من التراث الشعبي لأي مجتمع، يتناقله الأفراد ليبقى في الذاكرة معبرا عن خصوصيات اجتماعهم تجاريا وخبرات، متناولا كل جوانب هذا الاجتماع تربية وعيشا وتفكيريا، متميزا في كل ذلك بمميزات خاصة تحمل من العجائبية والمتعة والسحر ما يفرد الحكاية عن غيرها من الألوان الأدبية الأخرى، كالقصة والقصيدة والرواية والأمثال والحكم، ويجعل أمر الاستماع إليها مطلوب ومرغوب. كما تبين أن مضامين الحكايات الشعبية متنوعة تعالج قضايا واقعية يعيشها الإنسان في حياته اليومية بمختلف نواحيها: أسريا، وطنيا، اقتصاديا سياسيا، فكريا، تحمل بدورها قيما يؤمن بها ويحددها لأفعاله وعلاقاته وسلوكياته، الأمر الذي يعطي للحكاية وزنها في التعامل معها والإقبال عليها تعلما وتدبرا واعتبارا، حتى ولو في زمن استحوذت فيه وسائل الإعلام والاتصال، خاصة منها التلفزيون ومواقع الإنترنت كل الاهتمام.

المراجع.

- محبك، أحمد زياد (2005): من التراث الشعبي، دراسة تحليلية للحكاية الشعبية، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- عراي بلال أحمد ودكك أمل حمدي (2006-2005): علم الاجتماع التربوي، منشورات جامعة دمشق، سوريا.
- المرزوقي سمير وشاكر جميل (د.س): مدخل إلى القصة، الدار التونسية للنشر، تونس.
- عمر خليل معن (1991): نقد الفكر الاجتماعي المعاصر، دراسة تحليلية ونقدية، ط2، دار المعارف الجديدة، بيروت.